

## إيمان الفطرة - ١

عن محمود بن لبيد ، رضى الله عنه ، قال : لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم :

" هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ " فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : " أنا رسول الله ، بعثنى الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً و أنزل على الكتاب " .

قال : ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : فقال إياس بن معاذ ،

وكان غلاماً حدثاً: أى قوم هذا و الله خير مما جئتم له ....

حديث حسن ، أخرجه أحمد و البخارى و الحاكم وغيرهم

.....

هذه القصة النبوية تقدم لنا صورة من الحياة فى الجاهلية قبل أن يدخل الناس فى دين الله أفواجاً . فقد كانت القوة هى المهيمن أو المسيطر على العقلية العربية السائدة آنئذ . ومن لا يملك القوة فإنه لا يستطيع أن يعيش عزيزاً مكرماً .. بل يبقى تحت رحمة الآخرين ، مهدداً ذليلاً ، يتعرض للمهانة كلما سئحت الفرصة لغيره .. هذا هو منطلق الواقع الصحراوى الضشن الذى لا تحكمه قوانين ولا تحميه حكومة رأسخة ..

لقد ذهب بنو عبد الأشهل بقيادة أبو الحيسر أنس بن رافع من المدينة ، وكانت تسمى يثرب ، إلى مكة كى يتحالفوا مع قريش على قومهم من الخزرج ، والحلف يعنى النصرة والموازة والقتال إلى جانب الحليف ضد خصومه و أعدائه . ومجىء بنى عبد الأشهل من مسافات بعيدة لطلب التحالف من قريش ؛ يعنى أن

القوم كانوا فى وضع حرج للغاية ضد خصومهم ، فلو كان الأمر محدوداً لتحالفوا مع أقرب القبائل إليهم حول المدينة أو على مسافة قصيرة منها ، ولكنهم قطعوا مئات الأميال بحثاً عن حليف يحقق لهم الفوز والمساندة أمام العدو أو الخصم .

ولا شك أن حياة صعبة مثل هذه الحياة التى يحيها بنو عبد الأشهل ، وغيرهم من القبائل والعشائر والبطون العربية قبل الإسلام ، تكشف لنا عن نعمة كبيرة أسبغها الله سبحانه وتعالى على العرب الذين خلوا فى دين الله أفواجاً ، فتحقق لهم الأمن والرخاء ، واستظلوا بنعمة الأخوة فى الدين ، وهى الأخوة التى حملت العصبية الجاهلية ، وجعلت العرب المسلمين يحظون بنظام إنسانى رائع يقوم على الأخوة والمساواة والعدل ، وتراجعت فكرة " الهيمنة للقوى " أو " السيطرة للغالب " لتحل محلها قيم أخرى تحض على الخير والمعروف والعفو والتسامح .. فلم تعد القبائل فى حاجة كى تعيش بكرامتها إلى التحالف مع قبائل أخرى تسندها وتعزدها .. وصار ضميرها الداخلى هو الذى يحركها بمنهج الإسلام ونظامه وتشريعه ، فلا يبغى أحد على أحد ، ولا يجور فريق على فريق .. لقد انتقل المجتمع إلى وضع آخر فيه حضارة وإنسانية وتناغم شامل ، وينطلق من مفاهيم الإسلام وتشريعاته ، بوصفه كتلة واحدة لا قبائل متناحرة ..

سمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بوفاة بنى عبد الأشهل القادمين من يثرب للتحالف مع قريش على قومهم ، وعرف أنهم آتون استعداداً لحرب قد تاكل الأخضر واليابس ، ولكنها بمفهومها تحفظ عرينهم وتبقى على شوكتهم ، فقام بواجبه الدعوى مباشرة ، وذهب إليهم وجلس معهم ، وسألهم : " هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ "

أى إنه عرض عليهم أمراً هو أفضل وأحسن لهم وأقل تكلفة مما جاءوا من أجله ؛ لأنه سيوفر لهم الأمان والعزة والكرامة . وقد استفسروا منه – صلى الله عليه وسلم قائلين : وما ذاك ؟ أى ما هو الأمر الذى تعده خيراً مما جئنا من أجله ؟ فحدثهم عن بعثته صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى التوحيد ، ونزول القرآن عليه .

لقد عرض الرسول الكريم أسس الرسالة ، وعرفهم بنفسه بوصفه رسولاً ونبياً " أنا رسول الله ، بعثنى الله إلى العباد ، أدموهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب " ، وبالضرورة لابد أن تبدأ الدعوة أو أمر الدعوة بقضية العقيدة أو الإيمان ، فالتوحيد هو أساس العقيدة والإيمان ، والغرب على ما نعلم فى ذلك الزمان كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ، ويشركونها بالله ، ويقدمون إليها القرابين بوصفها تضر وتنفع من منظورهم ، ولكن الدعوة إلى التوحيد تغير كل ذلك ، وتحدث إنقلاباً فى العقلية العربية ومن تداعيات هذا الإنقلاب تغيير النظرة إلى الآخرين والخصوم ، وتحوّل السعى إلى التحالف لمقابلة الخرج من جانب بنى عبد الأشهل إلى شىء آخر .

إن نشرح الإسلام من جانب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتلاوة القرآن الكريم ، على وفد بنى عبد الأشهل فتح فى عقولهم آفاقاً جديدة ، وكانت الاستجابة الفطرية للإسلام من جانب هذا الغلام المسمى " إياس بن معاذ " الذى خاطب قومه بتلقائية فطرية .

" هذا والله خير مما جئتم به " ! فماذا جرى لهذا الغلام ؟

\*\*\*\*

## "إيمان الفطرة" - ٢

حين عرض النبي - صلى الله عليه وسلم - الإسلام على وفد بنى عبد الأشهل الذين قدموا مكة للتحايل مع قريش على قومهم مع الخزرج ، قال إياس بن معاذ : يا قوم ؛ هذا والله خير مما جئتم له .

قال راوي الحديث : فأخذ أبو الحيسر بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك . فلعمري لقد جئنا لغير هذا : قال : فصمت إياس ، وقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعثت بين الأوس والخزرج . قال ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

قال محمود بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومي عند موته ، أنهم لم يزالوا يسمعون بهل الله تعالى ، ويكبره ، ويحمده ، ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً . لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس . حين سمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما سمع .

.....

لقد دفعت الفطرة النقية السليمة الغلام الحدث ؛ إياس بن معاذ إلى الإيمان مباشرة ، عقب سماعه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بيان لمعنى الإسلام والتوحيد ، وقراءة آيات من القرآن الكريم .. لقد دخل الحديث إلى قلب الفتى التقي فأمن من فوره . وهتف بقومه : " هذا والله خير مما جئتم له " . إذا كان القوم قد جاءوا إلى مكة لما يحفظ لهم أمر الدنيا ، فالإسلام يحفظ لهم أمر الدنيا والآخرة جميعاً ، وبطريقة أفضل وأحسن مما جاءوا من أجله . بيد إن إسلام الفتى أو صيحته التي هتف بها في قومه ، لم تعجب قومه أو كبارهم . فقد ألقى أبو الحيسر أنس بن رافع التراب في وجه الفتى ، وقال : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا .

و هنا نكتشف مسألتين مهمتين الأولى : هى الاستهانة بصغار السن عموماً وعدم الاكتراث أو الاهتمام بأرائهم وأفكارهم ، والأخرى ؛ هى التعصب للقديم والسائد دون تفكير فى صوابه أو خطئه ..

إن الاستهانة بالصغار مسألة غير مقبولة ، ولكنها قائمة فى المجتمعات المتخلفة التى تقيس الأمور بغير مقاييسها الحقيقية الدقيقة . هناك من يرى أن صغير السن أو الطفل لا قيمة لأرائه أو أفكاره . و أن القيمة كل القيمة للكبار والعجائز ، وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه ، فالصغير أو الطفل إذا أحسنت تربيته كانت آراؤه صائبة فى الغالب ، وأفكاره جيدة فى معظم الأحيان ، حتى لو تعلق الأمر بقضية خطيرة مثل قضية العقيدة .

لقد أسلم على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وهو صبي لما يبلغ الحلم بعد؛ وكانت آراؤه ومواقفه منذ صباه من أفضل الآراء والمواقف ، فقد كانت يتمتع بذاكرة قوية وتفكير مرتب ووعى مرهف ، وهو ما جعل الصحابة - رضوان الله عليهم - يستفتونه فيما بعد فى أصعب المسائل الفقهية وأعقدها ، ويجدون عنده الفتوى الصائبة والرأى السديد .

إن الاهتمام بالطفل بصفة عامة وبأفكاره - أياً كانت - أمر مهم ، لأن هذا الاهتمام يقوده ووجهه إلى الطريق المستقيم والفكر الصواب والعمل الخير إن شاء الله .

و يروى التاريخ الإسلامى حكايات عديدة كان فيها صغار السن أكثر توفيقاً وأحكم رأياً من الكبار ، نظراً لما يمتازون به من صفاء الفطرة ونقاء السريرة، فضلاً عن خصوية العقل .

و الفتى إياس بن معاذ ، وإن كان أصغر تومه بنى عبد الأشهل ، إلا إنه سبقهم بفطرته وطبيعته إلى الرأى السليم والإيمان الصحيح .

أما التعصب للقديم والسائد دون وعى أو تبصر، فهو خلة ذميمة أشار إليها القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، ووصف أصحابها بأنهم قوم لا يعقلون أى لا يستخدمون عقولهم فى التفكير والتدبر والتأمل واتخاذ القرار الملائم .

من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

«وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ أُولَئِكَ جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه ءآباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كفرون» (الزخرف: ٢٤: ٢٣)

و قد قدمت السورة لهاتين الآيتين و غيرها مما ورد فى سياقها بقوله تعالى : «حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (الزخرف: ١-٢)

إن طلب تحريك العقل هنا ضرورة لفهم ما يعرض وما يطرح من قضايا و أمور تخص العقيدة أو الإيمان أو غيرها . ولكن النظرة القائمة على التعصب دون تفكير تحجب عن أصحابها الحقيقة والخير ، وهو ما نراه الآن فى بعض المجالات . حيث يعتقد أصحابها وخاصة من دعاة التغريب والتبعية أنهم على صواب ، وأنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة .

إن أبا الحيسر أنس بن رافع لم يفكر حين نطق إياس بن معاذ بالإيمان ، ورمى فى وجهه بالتراب . وقال متغطرساً : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا لم يستفد أبو الحيسر بدعوة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم ، ولكن الفتى الصالح يكتم إيمانه و أصر عليه و عرف من حضروا وفاته أنه كان يهزل الله تعالى ، و يكبره ، و يحمده ، و يسبحه حتى مات مسلماً ، و تأكد هؤلاء أنه أسلم منذ كان مع قومه بنى عبد الأشهل . فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم - ووعى ما قاله و تأثر به ، و إن كان لم يستطع أن يواجه زعيم قومه أبا الحيسر أنس بن رافع ، أو يقف فى طريقه لحدائثة سنة .

## أول من صلى إلى الكعبة - 1

يروى كعب بن مالك - رضى الله عنه - فيقول : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة . قال البراء لنا : يا هؤلاء إني قد رأيت رأياً ، وو الله ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا ؟ فقلنا : وما ذاك ؟ قال : رأيت ألا أدع هذه البنية منى بظهر - يعنى الكعبة - وأن أصلى إليها . فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم - يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه . فقال : إني لمصل إليها ، فقلنا له : لكننا لا نفعل .

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ، وصلى هو إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة .

قال : وقد كنا عبنا عليه ما صنع ، وأبى إلا الإقامة على ذلك ، فلما قدمنا إلى مكة قال لى :

- يا ابن أخى . انطلق بنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه ....

حديث حسن ، أخرجه أحمد والطبرانى والطبرى وغيرهم .

.....

تمثل هذه القصة لونا من ألوان الحياة التى عاشها المسلمون الأوائل ، وكان التشريع الإسلامى لما يكتمل بعد ، فيحاول بعضهم إنطلاقاً من عواطفه ومشاعره تجاه بعض الأماكن أو الأفكار أن يجتهد فى أمور شرعية وفقاً لهذه العواطف والمشاعر ، دون دليل حاسم أو فتوى تبيح فعله .

و قصة الحديث حكى بضمير المتكلم خروج وفد من مسلمى المدينة المنورة فى طريقهم إلى مكة المكرمة بقيادة " البراء بن معرور " سيد القوم وكبيرهم. وبينما هم فى الطريق إذا بالبراء بن معرور - رضى الله عنه - أن يصلى نحو الكعبة، فهو لا يريد أن تكون بظهره ، أى خلفه .. كأنه يعز عليه أن يصلى فى اتجاه آخر، لأن الكعبة أو البنية كما سماها ينبغى ألا يدعها بظهر منه ، أى يتركها فى خلفه ويتجه إلى غيرها .

وواضح أن هذه القصة جرت قبل تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وكان لهذا التغيير صداه فى الواقع الإسلامى عند حدوثه ، فقد كانت عواطف المسلمين المهاجرين وفى مقدمتهم النبى - صلى الله عليه وسلم - تحمل حباً جارفاً لمكة المكرمة التى أخرجوا منها بغير حق ، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يخاطبها بوصفها أحب بلاد الله إليه .

و قد نزلت الآية الكريمة لتحقيق أمله - صلى الله عليه وسلم - بالاتجاه فى الصلاة نحوها أو نحو الكعبة تحديداً .

قال تعالى: "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" (البقرة: ١٤٤)

إذاً هى القبلة التى يرضاها محمد - صلى الله عليه وسلم - ويرضاها المسلمون المهاجرون معه الذين يتوقون إلى التوجه نحوها ، وكذلك البراء بن معرور مع أنه من أهل المدينة المنورة .

وفى مجال عرض الرأى الذى ارتآه البراء بن معرور ، فإن الوفد المرافق له لم يؤيده ولم يتفق معه فيما ذهب إليه ، وقالوا له - والله ما بلغنا أن نبينا - صلى الله عليه وسلم يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه . وهم يقصدون بالصلاة إلى الشام ، الصلاة نحو بيت المقدس فى فلسطين التى نسميها الآن بالقدس ، وفلسطين جزء من الشام .

و نلاحظ هنا أن الوفد المرافق للبراء بن معرور ، كان ملتزماً بما سمعه ويسمعه من النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا يتجاوزُه إلى اجتهاد شخصى أو رأى ذاتى لأن قضية الدين ليست خاضعة للرأى أو الاجتهاد ، خاصة فيما يتعلق بأمور العبادة التوقيفية أو التى يفصل فيها الوحي . لذا فإن قول الوفد للبراء " وما نريد أن نخالفه " يعنى التزامهم التام بمنهج الرسول الكريم وعدم خروجهم عليه .

ظل البراء فى جانب و الوفد فى جانب . هو يصلى إلى الكعبة وهم يصلون إلى بيت المقدس ، ومع أنهم عابوا رأيه واستهجنوا موقفه ، إلا إنه ظل يصلى إلى الكعبة حتى وصلوا جميعاً إلى مكة .

وقال البراء لكعب بن مالك - رضى الله عنهما - يا ابن أختى انطلق بنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا - يقصد صلاته إلى الكعبة - فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إيلى فيه .

كأن البراء استشعر أنه ارتكب إثمًا ، أو استشعر حرجا بما فعله ، فكان لابد أن يعود إلى المرجع الذى يحسم كل خلاف ويقضى بالحكم الصائب .

و العودة إلى المرجعية الإسلامية منتهج إسلامى ناضج ، يوجه إلى الصواب ويقضى على كل خلاف ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن أى خلاف

ينشب بين المسلمين فيجب رده إلى هذه المرجعية التي تفصل في كل شيء ؛ صغيراً  
أو كبيراً .

قال تعالى : "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ  
وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن  
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (النساء : ٥٩)  
و قال تعالى :

"وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى  
الرَّسُولِ وَالِىَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا  
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا" (النساء : ٨٣)  
و قال تعالى :

"وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي  
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" (الشورى : ١٠)

المرجعية إذاً هي الله و رسوله ، وهي المرجعية التي راح البراء بن معرور  
يحتكم إليها بحثاً عن الصواب .

\*\*\*\*